رسالة ابي نصر الفارابيّ في السياسة

تولّى نشرها الاب لويس شيخو اليسوعيّ

أشرنا في المشرق (٢ : ٣٨٠) الى مجموعة قديمة حسنة تحتوي على عدّة رسائل فلسفيّة وادبيّة تصوّرنا في مكتبتنا الشرقيّة ونقلنا عنها كتاب مكارم الاخلاق للامام ابي منصور الثعالبي. ومن جملة ما يتضمّنهُ المجموع المذكور رسالة لابي نصر الفارابي في السياسة لا يبلغ عدد صفحاتها على ١٣ صفحة. وهي من ابدع ما جاء في باب الحكم والآداب آثرنا نقلها لفائدة القراء. وقد وجدنا من هذه الرسالة نسخة ثانية في المكتبة الواتيكانيّة فقابلنا بينها لضبط الاصل وتدوين الرواية الصحيحة. ولا حاجة ان نصف هنا مقام ابي نصر الفارابي صاحب هذه الرسالة فانّهُ قد جارى في العلوم اعظم فلاسفة العرب كابن سينا وابن رشد واعدّهُ فاق عليهما باشياء كثيرة. ومن اراد الوقوف على فضل هذا الرجل العظيم الذي شرّف العلوم بتآليفه الفلسفيّة والطبيّة والفنيّة (لاسيما الموسيقى) فليراجع كتاب طبقات الاطبّاء لابن ابي اصيبعة (٢ : ١٣٤ – ١٤٠) كانت وفاة الفارابي في دمشق سنة ٣٣٩ (٩٥٠م). وكتبهُ نادرة اخذت كثيرًا منها ايدي الضياع. وهذه الرسالة في السياسة لم نجد لها ذكرًا في فائمة كتب الفارابي وهي مختلفة عن رسالة اخرى لهُ وسمها بالسياسة المدنية يوجد منها نسخٌ عديدة في المكاتب الاوربيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

(44) وما توفيقي الّا بالله

قصدنا في هذا القول ذكرُ قوانين سياسيّة يعمّ نفعها جميع من استعملها من طبقات الناس في متصرّفاتهِ مع كلّ طائفة من اهل طبقتهِ ومَن فوقهُ ومن دونهُ على سبيل الايجاز والاختصار. على انّهُ لا يخلو قولنا هذا من ذكر ما تختصّ باستعمالهِ طائفة دون طائفة وواحدٍ دون واحد منهم في وقتٍ دون وقت ومع قوم دون قوم اذ الواحد من الناس لا يمكنهُ ان يستعمل في كلّ وقت مع كلّ احد كل ضرب من ضروب السياسات. ونقدّم لذلك مقدّمات منها ان نقول (١ :

(١) هذه الفاتحة ليست في النسخة الواتيكانيّة. وانما جاء فيها فقط ما نصّهُ: كلام ابي نصر الفارابي في وصايا يعمّ نفعها جميع من استعملها من طبقات الناس قال . . .

انَّ كل واحد من النـاس متى ما رجع الى نفسهِ وتأمل احوالها وأحوال غيره من ابناء الناس وجد نفسهُ في رتبة يشركهُ فيها طائفةٌ منهم ووجد فوق رتبتهِ طائفةً منهم أعلى منزلةً منهُ بجهة او جهات ووجد دونها طائفةً هم اوضع منهُ بجهةٍ او جهات. لانَّ الملك الاعظم وان وجد نفسهُ في محلٍّ لا يرى لاحد من (٤٩) النـاس في زمانهِ منزلةً اعلى من منزلتهِ. فانهُ متى تأمل حالهُ نعماً وجد فيهم من يفضل عليهِ بنوع من الفضيلة اذ ليس في اجزاء العالم ما هو كامل من جميع الجهات. وكذلك الوضيع الخامل الذكر يجد من هو دونهُ بنوع من الضعة فقد صحَّ ما وصفناهُ. وينتفع المرء باستعمال السياسات مع هؤلاء الطبقات الثلاث. اما مع الارفعين فلينال مرتبتَهم واما مع الاكفاء فليفضلَ عليهم. واما مع الاوضعين فلئلا ينحطَّ الى رتبتهم

ونقول ايضاً انَّ انفع الامور التي يسلكها المرء في استجلاب علم السياسة وغيرهِ من العلوم ان يتأمل احوال الناس واعمالهم ومتصرفاتهم ما شهدها وما غاب عنها مما سمعهُ (١ وتناهى اليهِ منها وان يُمعن النظر فيها ويميّز بين محاسنها ومساوئها وبين النافع والضارّ لهم منها ثمَّ ليجتهد في التمسُّك بمحاسنهـا لينال من منافعها مثل ما نالوا وفي التحرُّز والاجتناب من مساوئها ليأمن من مضارّها ويسلم من غوائلها مثل ما سلموا

ونقول ايضاً انَّ لكل شخص من اشخاص الناس قوَّتين احداهما ناطقة (٢ والاخرى بهيميَّة ولكلّ واحدةٍ منهما [ارادة واختيار وهو كالواقف فيما بينهما. ولكلّ واحدةٍ منهما (٣] تزاع غالب. فتزاع القوَّة البهيميَّة نحو مصادفة اللذات العاجلة الشهوانيَّة مثل انواع الغذاء وانواع الاستمراغات وأنواع الاستراحات. وتزاع القوَّة النطقيَّة نحو الامور المحمودة العواقب (٤ مثل أنواع العلوم وأنواع الافعال التي تجدي العواقب المحمودة

فاول ما ينشأ الانسان في حيّز البهائم الى ان يتولَّد فيهِ العقل اولاً فاولاً وتقوى فيهِ القوَّة الناطقة. فالقوَّة البهيميَّة اذن أغلب عليهِ وكل ما كان اقوى وأغلب فالحاجة الى اخمادهِ وتوهينهِ واخذ الأهبة والاستعداد لهُ اشدُّ وألزم. فواجب على كل من يروم نيل

١) وفي النسخة الواتيكانيَّة: « ما يُشاهد وما غاب منهُ سمعهُ »
٢) وفي نسخة الواتيكان: « عاقلة »
٣) قد اسقط الناسخ ما وضعناهُ بين قوسين نقلاً عن النسخة الواتيكانيَّة
٤) وفي النسخة الواتيكانيَّة: « نحو العواقب المحمودة »

الفضائل ان لا يتغافل عن تيقيظ نفسه في كل وقت وتحريضها على ما هو اصلح لهُ وأن لا يهملها ساعةً فانهُ متى ما اهملها وهي حيَّة والحيّ متحرّك لا بُدَّ من ان تتحرّك نحو الطرف الآخر الذي هو البهيمي واذا تحرّكت نحوهُ تشبّثت ببعض منهُ حتى اذا أراد ردّها عمّا تحركت اليهِ حاتهُ من التصاب اضعاف ما كان يلحقهُ لو لم يهملها ويعطّل وقتهُ الذي كان ينبغي ان (٤٩) يحصل فيهِ فضيلةً لاشتغالهِ بالاحتيال لردّها عمّا تحركت نحوهُ وفاتتهُ تلك الفضيلة

ونقول ايضاً انَّ المرء لا يخلو في جميع متصرفاته من ان يلقى امرًا محمودًا او امرًا مذمومًا ولهُ في كل واحد من الامرَين فائدة ان استفادها ويجد في كلّ واحد منهما نفعاً يمكنهُ جذبهُ الى نفسهِ ويصادف في كل واحد منهما موضع رياضة لنفسهِ وهو انهُ يحتال للتمسك بذلك الامر المحمود الذي يلقاهُ ان وجد السبيل الى التمسُّك بهِ او يتشبَّه بالتمسُّك بهِ بقدر طاقتهِ ان اعوزهُ ذلك او يُحسن ذلك الامر عند نفسهِ وينبّهها على فضلهِ (١ ويوجب عليها التمسُّك بهِ متى ما وجد الفرصة لذلك وهو لا شك واحدٌ السبيل (٢ الى هذه الثلاث. واذا تلقّاهُ الامر المذموم فليجتهد في التحرّز منهُ والاجتناب عنهُ وان لم يجد الى ذلك سبيلًا وهو واقع فيهِ فليبالغ في نفيهِ عن نفسهِ بغاية ما امكنهُ وان لم يمكنهُ التبرُّؤ منهُ فليعزم على نفسهِ انهُ اذا تيسَّر لهُ الخلاص منهُ لا يعود الى اشباههِ. وليُقبِّح الى نفسهِ دواعي ذلك الامر وليبّنها على الاعتبار بمن ألمَّ مضارُّ مثلها. فقد ظهر انَّ المرء يصادف في جميع احوالهِ دربّها وجلّها خيرها وشرّها موضع الرياضة لنفسهِ

ونقول ايضاً انَّ اوّل ما ينبغي ان يبتدئ بهِ المرء هو ان يعلم انَّ لهذا العالم واجزائهِ صانعاً بأن يتأمّل الموجودات كلها هل يجد لكل واحد منها سبباً وعلّةً ام لا. فانهُ يجد عند الاستقراء لكل واحد منها سبباً عنهُ وُجد. ثمَّ ينظر الى تلك الاسباب القريبة من الموجودات هل لها اسباب ايضاً ام ليست لها اسباب. فانهُ يجد لها ايضاً اسباباً. ثمَّ يتأمّل وينظر هل الاسباب ذاهبة الى ما لا نهاية [لهُ ام هي واقفة عند نهايةٍ ام بعض الموجودات اسباب البعض على سبيل الدور. فانهُ يجد القول بانها ذاهبة الى غير

١) ويروى: على فضيلته ٢) ويروى: اجدُّ السبيل

نهاية (١) محالًا ومضطربًا لانهُ لا يحيط العلم بما لا نهاية لهُ. ويجد القول بان بعضها سببٌ للبعض على التعاقب محالًا ايضًا لانهُ يلزم من ذلك ان يكون الشيء سببًا لنفسهِ كما انهُ لو كان الألف سببًا للباء والباء سببًا للجيم والجيم سببًا للدال لكان الالف سببًا لنفسهِ وهذا محال. فبقي ان تكون الاسباب متناهية. واقلّ ما يتناهى اليهِ الكثير هو الواحد فسبب الاسباب موجود وهو واحد (46ظ). ولا يجوز ان يكون ذات السبب وذات المسبَّب واحدًا فسبب اسباب العالم منفردٌ بذاتهِ عمَّا دونهُ

ولمَّا لم يقدر الانسان على معرفة شيء سوى ما شاهدهُ بحواسهِ وفهمهُ بعقلهِ عمَّا (٢) شاهدهُ لم يجد بدًّا من وصف الباريّ الذي هو سبب الاسباب والعبارة عنهُ بما وجد السبيل اليهِ من الالفاظ والاوصاف فلمَّا اراد العبارة عنهُ والوصف لهُ وعلم انهُ لا يلحقهُ شيء من جميع الاوصاف التي شاهدها وعلمها لتفرُّدهِ بذاتهِ ولانهُ منزَّهٌ عن كل ما أحسَّهُ وعرفهُ لم يجد طريقًا احسن من ان ينظر في الموجودات التي لديهِ فاذا تأمَّلها وجدها صنفين فاضلًا وخسيسًا ووجد الأليق والاجدر بسبب الاسباب الواحد الحقّ ان يُطلق عليهِ من كل الصنفين افضلهما. مثل انهُ رأى الموجود والمعدوم وعلم ان الموجود افضل من المعدوم فأطلق القول عليهِ وقال: انهُ موجود. ورأى الحيّ وغير الحيّ وعلم انَّ الحيَّ افضل من غير الحيّ فاطلق القول عليهِ وقال: انهُ حيّ. ورأى العليم وغير العليم فاضاف اليهِ العلم. وكذلك جميع الاوصاف. على انَّ الواجب على كلّ من يصف الباريَ بصفةٍ ما ان يخطر ببالهِ مع تلك الصفة انهُ بذاتهِ منزَّهٌ عن ان يُشبه تلك الصفة بل هو أفضل واشرف واعلى وانهُ لا يتهيأ لاحد إحاطة العلم بهِ كما هو [مستحقٌّ لهُ]

ثم انهُ اذا علم هذا الذي وصفناهُ فينبغي ان يتأمل اجزاء العالم كلَّها فانهُ يجد افضلها ما هو ذو نفس ويجد افضل ذوي الانفس الذي لهُ الاختيار والارادة والحركة [التي عن رويَّةٍ] وافضل ذوي الارادة والحركة [عن الرويَّة] الذي لهُ التمييز والفكر والنظر البليغ في العواقب وهو الانسان [الفاضل]. وان يعلم مع ذلك ان الطبيعة لا تفعل شيئًا باطلًا فكيف مبدع الطبيعة والباريّ تعالى حيث هو وهب الاختيار والفكر والرويَّة للبريَّة لم يكن ينبغي ان يهمل امرها. وكان من الواجب في عدلهِ وصنعهِ المتقن

(١) سقط ما وضعناهُ بين مكَّفين من الاصل فأعدناهُ اليهِ نقلًا عن النسخة الواتيكانية

(٢) ويروى: عمَّا

ان ينهج لها منهجاً يسلكونهُ ولمَّا كان ذلك واجباً (١ لم يكن ينبغي ان يُرسل اليها من ليس من طبعها (٢ لانهم لم يكونوا يقدرون على الاستفهام ممن هو من غير طبعهم فظاهر انَّ في الناس وفي عقولهم وقوى نفسهم تفاضلاً بيّناً حتى انَّ الواحد منهم يفوق (46ᵛ) بالقوى الواحد جميع ذوي جنسهِ ويعجز الباقون عنهُ فممكن اذن ان يكون من الناس من يقوى على ان يوحى الى قلبهِ بما يعجز ذوو جنسهِ عن مثلهِ (٣ حتى يقوم ذلك الواحد بتبليغ ما يُلقى اليهِ ويقدر بتلك القوة وذلك الافهام على تشريع الأحكام ونهج السُّبل الداعية الى صلاح الحالين

ثمَّ ينبغي ان تعلم انَّهُ اذا ظهر مثل هذا الوجه وتبيَّن امرهُ (٤ فالواجب على كلّ ذي تمييز اتباعهُ وان تعلم ان لكلّ واحد من الناس تمييزاً ومعرفةً فمتى وجد الافهام الكثيرة والآراء المختلفة مجتمعةً على كلمة واحدة ولم يُجد ما هو اظهر منهُ (٥ وأكشف واقوى فليتَّبع الكثير فانَّ الحقَّ معهم والسلامة ابداً مع الكثير . وينبغي ان لا تغرَّهُ الواقعات في الندرة وفي الآراء المزخرفة فان اكثرها اباطيل اذا تأمَّلها نعماً

ثمَّ ينبغي ان يعلم انَّ المكافأة واجبة في الطبيعة وانها انَّما تجب في الاعمال المقرونة بالنيَّات . والدليل على ذلك انَّ المرء لا يُجازى على ما يعملهُ في نومهِ ولا على ما ليس من ارادتهِ واختيارهِ مثل سُعالهِ وعطاسهِ وحياتهِ وموتهِ وتنفُّسهِ واغتذائهِ واستفراغهِ [وان كان فيها بعض الارادة (٦] . ولا يجازى ايضاً على نيَّاتهِ المجرَّدة . واوَّل ما ينبغي ان يستدلَّ بهِ المرء على وجوب المكافأة هو انهُ متى ما اعتقد ما تقدَّم ذكرهُ من معرفة البارئ ووحدانيَّتهِ وتنزُّههِ عن صفات المخلوقين ومعرفة رسولهِ في اي زمان كان وانتهج

---

١) ويروى : كان ذلك بالواجب ٢) يمكنهُ تعالى ان يبلِّغ اوامرهُ للبشر توًّا دون وسيط او رسول لكنهُ عزَّ وجلَّ يختار عادةً من يتوسَّط بينهُ وبينهم (راجع رسالة النديس بولس الى البرابيين الفصل الخامس) ٣) وزد على ذلك ان الله اذا اختار لهُ رسولاً لتبليغ ارادتهِ للبشر يحلّهُ بالصفات التي تؤهلهُ لهذه الدعوة

٤) يتبيَّن امر الرسول المرسل من الله بالمعجزات الصادقة التي يصنعها

٥) قولهُ « ولم يجد ما هو اظهر منهُ » يدل على انَّ المرء في معرفة الرسول الصادق لا يكفيهِ اتباع العدد الاوفر بل ينبغي لهُ ايضاً ان يستعين مع ذلك بقواهُ العقليَّة ليرى صحَّة الرسالة ويميزها عن الرسالة المدَّعاة

٦) سقط من نسختنا وهو في النسخة الوانيكانية

النهج المستقيم وجد في صدره سعةً وفي احواله استقامة وعن الاشرار سلامةً وعند الاختيار حظوةً وفي معاشه سدادًا مقدارَ ما ينيلهُ وينويه منهُ . واذا تيقَّن ذلك فينبغي ان يُقدم على سياسة الاحوال بقلب قويّ ونيَّة صادقة وصدر واسع وثقة بان ما يأتيه من ذلك وان قلَّ يجدي عليه نفعًا بجلّ (الباقي للآتي)

اديرة مصر الاولى للقديس باخوميوس

للباحث المدقق الاب ميخائيل جوليان اليسوعي (تتمةٌ لما سبق)

٣ دير تابنَّة

في وصفنا السابق لدير فاو بيَّنَّا ما صار اليه ذلك المقام من الشهرة بكثرة رهبانه وعجيب ترتيبه الَّا انَّ هذا الدير كان سبقهُ دير آخر يعدُّهُ المؤرخون كمهد المعيشة الرهبانيَّة على طريقة القديس باخوميوس الَّا وهو دير تابنَّسة المدعو بالقبطيَّة تابنيسي ومعناها « نخيل الإلهة ايسيس » وهاك بالاختصار خبر هذا الدير كما ورد في ترجمتيه القديمتين

بينما كان باخوميوس متنسكًا تحت نظارة الشيخ الجليل القديس پاليمون اذ ألهمهُ الله في ذات يوم ان يخرج الى البرّيَّة كألوف عادته فهام على وجهه سائرًا بين الادغال والاشواك حتى قطع عشرة اميال (١ فوصل الى تابنَّة حيث جثا راكعًا وصلَّى الى الله ملتمسًا منهُ ان يكشف لهُ ارادتهُ تعالى عزَّ وجلَّ . وبقي مستحرًا بالصلاة ساعات طوالًا حتى اتاهُ صوت من السماء يكرّر على مسامعه هذه الاقوال: « جاهد الجهاد الطيّب واسكن في هذا المكان وابنِ لك قلايةً فيأتيك جمٌ غفير من النسَّاك يتتلمذون لك ويسلكون تحت قيادتك طريق الكمال »

فلمَّا علم پاليمون برؤيا تلميذه هلَّت الدموع من عينيه مليًّا ثمَّ صرخ: « بُنيَّ ألملك تتركني في شيخوختي بعد سبع سنوات قضيتها تحت طاعتي . ولكن فلتتمّ مشيئة الرب على الدوام . فاذهب الى حيث يدعوك الله ولا اطلب منك سوى نعمة واحدة وهي ان

١) وفي الترجمة الافرنسيَّة التي نشرها المسيو أميلينو « سار ميلًا » وهو غلط لا يوافق النصّ القبطي